

Abstract

John Milton's *Paradise Lost* not only enjoys a peculiar place in English literature but also in the sphere of international literature. The epic got popularity among readers the moment it appeared for the first time (1667) as well as it gained attention of contemporary literati & critics. The intellectual & literary discourse on this epic is also unique in quality quantity & diversity. The secret is in the work itself, as the form & the content of the epic, both, have been provoking a host of philosophical, religious & literary issues through out intellectual history of mankind.

The present article: *الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة* attempts to cover a spectrum of matters & questions raised by European critics & writers. The most important elements, that have been elucidated, includes the style, sublimation, basic theme, image of Satan & hero in *Paradise Lost*.

The English works, about *Paradise Lost*, have usually not been rendered into Arabic. For this reason & for the purpose to maintain originality, English sources have been utilized to shape up the body of the article. Hence the writer is to be addressed for any different suggestion or idea relating to the translated texts & criticism.

The effort has been made to include as much dimensions as possible. For this purpose, brevity & summarization were the only option available.s

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

الدكتور انعام الحق غازي

أستاذ مساعد ومسئول قسم الترجمة والترجمة الفورية

بكلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد باكستان

توطئة :

يعتبر جون ملتون (1608م - 1674م John Milton) من أبرز شعراء الأدب الإنجليزي، واشتهر بملحمته المسماة بالفردوس المفقود (Paradise Lost) الذي كتبها في عام 1667م وتعد ملحمته هذه - في رأي جميع النقاد - من أعظم الأعمال الشعرية في اللغة الإنجليزية.

وقد عاش ملتون حياة مليئة بالمتاعب المفجعة؛ فقد فقد ابنه الأصغر في سنة 1652م، ثم ما لبث أن فقد زوجته في العام نفسه. وبعد أربع سنوات يتزوج مرة أخرى حين يفقد زوجته الثانية وطفلتها الرضيعة، وفي سنة 1663م يخوض ملتون غمار تجربة جديدة حيث يرتبط بسيدة تدعى اليزابيث ميشال، ويظل يتخبط في هذه الحياة إلى أن توفي في سنة 1674م. (1)

يوضح ملتون في الفردوس المفقود كيفية فقدان إنسان للجنة ثم يقدم الأسباب التي أدت إلى ذلك حيث يروي قصة آدم وحواء مع الشيطان وكيف استطاع الشيطان أن يغويهما بشتى الطرق وذلك عن طريق تحريضهما على الأكل من الشجرة التي تعرف بشجرة المعرفة.

ويحتوي الفردوس المفقود على قضايا إنسانية وفكرية وفلسفية وأدبية ظلت تشغل عقول الدارسين والنقاد على مرّ القرون الطويلة. وقد ظهرت آراء متنوعة ومتضاربة نتيجة للتفكير فيها.

والمقال هذا محاولة متواضعة لاستعراض آراء النقاد حول هذا العمل الأدبي العظيم.

تكشف الدراسات النقدية حول الملحمة الشعرية الإنجليزية الفردوس المفقود لملتون (2) عن آراء صاحبها تجاه الأدب عموماً والشعر خصوصاً، فهو يرى أن الهدف الأساسي للشعر هو تعليم الناس ولا يقلل الشعر - في هذا المجال - فائدة عما تُعلّمه الأخلاق ولكنه إلى جانب ذلك يقرر أيضاً أنه ينبغي للشعر أن يمتع القارئ، فالمتعة أو السعادة إحدى مكونات الشعر في نظره وقد أشار ملتون

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

أكثر من مرّة في ملحّمته إلى أنّ الشاعر الإبداعى الناجح دائماً يكون مستلهماً، فالاستلهام فى رأيه له دور كبير فى نجاح الشاعر (3).

ولست بصدد عرض نظريّاته الأدبية أو الشعرية بقدر ما يهتني تلخيص آراء الدارسين فى الغرب، لملحّمته الشعرية، التى لفتت أنظار النقاد والباحثين لحظة ظهورها. يقول أحد معاصرى ملتون، وهو جون دريدان

(Jhon Dryden 1663-1700): "إنّ هذا الرجل غلبنا وغلب على سابقينا من فحول شعرائنا جميعاً (4).

وقبل 1 استعرض آراء النقاد والدارسين ومناقشاتهم حول هذه الملحمة، أوّذ أن أسجل هنا ملاحظتين مهتتين وهما:

- 1- جُلّ الآراء والمناقشات النقدية تدور حول الجزئين الأوّل والثانى له فقط وذلك لأنّ الأجزاء الباقية للفردوس المفقود فى معظم الحالات - لم تصل إلى ذلك المستوى الفنّى الرفيع الذى يعتبر أحد عناصر الأعمال الأدبية الخالدة.
 - 2- كان النقاد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، معجبين به وبجميع عناصره الشعرية من أسلوب وفكرة وشخصيات، ولكن معظم الدراسات النقدية فى القرن العشرين تقلّلت من أهميّته الأدبية والفنّية.
- وبعد الفحص والنظر فى المادّة التى تجبّعت لدىّ قمت بتقسيمها إلى عناصر عشرة، وحاولت أن أرصد أهمّ ما قيل عن كل عنصر - تحت عنوان جانبى - من عناصر هذه العمل الفريد فى أسلوبه ومحتواه. وأمّا العناصر التى يتناول هذا المقال بالحديث عنها فهى:
- أسلوب ملتون ولجوءه إلى الشعر غير المقفى وتوفّر السبّو الأدبى فيه والحديث عن فكرته الأساسية ووجود الإشارات إلى السيرة الذاتية فى الفردوس المفقود وصورة الشيطان والعنصر البشرى فيه والمناقشة حول بطله بالإضافة إلى عناصر أسلوبية وأدبية مقارنة مثل التشبيهات ومزج العناصر الهيلينية والعبرانية فى عمله هذا.

أسلوب الفردوس المفقود:

ظلّ أسلوب الفردوس المفقود محل خلاف كبير بين النقاد على مرّ القرون، فهناك من يسمّيه الأسلوب الرفيع (Grand Style) (5)، وهناك من يقول، مثل كيتس الشاعر الناقد

الفرحوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

الإنجليزي (Jho Keats 1795م - 1821م): "إنه أفسد لغتنا فلا بد أن يُحفظ على أسلوبه فقط دون أن يتبع أو يقاس عليه". (6)

ويرى لويس (FR-Leavis 1895م - 1978م) أنه يجعلنا نتمتع بالفاظه فقط ولا يسمح لنا أن نحس بما وراء الألفاظ من المعاني والدلالات، وأثناء قراءتنا له كثيراً ما نضطر أن نقول إن أسلوبه جزل الألفاظ أو أنه يهتم بالشكل أكثر. (7)

وقد أتهم ملتون بفقد التنوع في أسلوبه أيضاً وبإيراده جملاً طويلة سلسلة ومملة وباستعمال كلمات في غير دلائلها المعروفة والمعتادة لدى الناس. (8)

وقد دافع بعض النقاد عن أسلوبه قائلاً: "إن الأسلوب الرفيع ضرورة في مثل هذا العمل الأدبي، فالملحمة في أمس الحاجة إلى الأسلوب الإبداعي غير العادي والمعتاد لدى الناس والتسلسل في الجمل مطلوب أيضاً في عمل تكوين الملحمة" (9).

ومن الاعتراضات التي وردت من قبل النقاد على أسلوبه بأنه يعتمد على التصنع وعلى استعمال الكلمات الأجنبية لغرض موسيقي ارتضى به هو، ومن عيوب أسلوبه أيضاً أنه لا يتميز بدقة التعبير والصدق الفني. يقول في-ايس-إيليوت (T.S.Eliot 1888م - 1963م):

"يمكننا أن نعتبر التصنع خطأ فاحشاً في أسلوبه الشعري، فهو يستبدل شعورياً لغة مصطنعة بلغة معتادة فطرية" وكان إيليوت يستغرب من بدايته الملحمة ب:

Of man's first.....

ويتساءل هل تبدأ جملة إنجليزية بحرف: "of"! ولكنه نفسه بعد ذلك تخلى عن رأيه هذا واعتبر بعد ملتون عن الأسلوب العادي "إبداعه هو في لغته الشعرية فهو أحد العناصر المهيمنة التي جعلت عمله عظيماً" (19).

يقول ناقد "إن أسلوبه يقوم على أساس الكلمات الواضحة وترتيبها الفطري وتركيبها المبتن" ويرى ميسيو أرندل أنه "لا شك أن ملتون في بيانه القوى المؤثر وإيقاعه الجميل يساوى ورجيل ودانتى" (11) هذا هو الناقد الذي أول من استعمل مصطلح "الأسلوب الرفيع". كما سبقت الإشارة إلى ذلك- ويقول في تحديد معناه:

"يظهر الأسلوب الرفيع في الشعر إذا عالج شاعر ذو موهبة وقوة إبداعية موضوعاً جاداً بالبساطة والدقة في التعبير".

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

وقد اختلف النقاد في هذا التعريف؛ يقول سانس برى معلقاً عليه: "إنه (أى الأسلوب الرفيع) شكل جديد لنزعة الكلاسيكية الجديدة ضد نزعة الرومانسية الغامضة المبهمة والمفرقة في الخيال" (12).

وعلى أية حال فإن صاحب هذا المصطلح قام بالمقارنة بين قطعات مختارة من أعمال هوميروس وورجيل ودانتى وشكسبير (13) من ناحية وبين قطعات مختارة من الفردوس المفقود لملتون من ناحية أخرى في ضوء مفهوم مصطلحه الأسلوب الرفيع، وانتهى من هذه المقارنة إلى أن القدرة الإبداعية الرفيعة والتي تتوافر عند شعراء قلائل في العالم، هي الدعامة الكبرى لأسلوبه الرفيع.

وهذا يذكّرنا ما يسمى بالسبوت الأدبي (وسياًقى تفصيل ذلك تحت عنوان مستقل) ويقصد به العلو والبراعة اللغويين فهو الذى يجعل الأدب أو الشاعر عظيماً ويعطى لعبه شهرة أبدية.

ونحن إذا تعبقنا في هذين المصطلحين (الأسلوب الرفيع والسبوت الأدبي) وجدنا أنهما يلحان إلحاحاً شديداً على وفرة جودة عميقة وقوة متحركة في الشعر، وعلى أنه لا بد أن يكون خالياً من التكلف والمحسنات المصطنعة.

وثمة دارسون غاصوا في تحليل أسلوب الفردوس المفقود ومقارنته بالنصوص الجيدة الأخرى يقول دونالد ر. برس، والذى درس أسلوبه وقارنه بتراي لوس وكريسيدا (Troilus & Cressida) لشيكسبير، فهو يقول، موضحاً عناصر النثر الحاز الملهب والبثير في الفردوس المفقود: "إن لغة شيكسبير دارجة من ناحية ولا تتسم بالبساطة والوضوح من ناحية أخرى، ولكن أسلوب ملتون أصيل ومؤسس على شكليات النثر الكلاسيكي، ورغم ذلك يتسم بإحكام الكلمات وعمق التراكييب ووضوح الأفكار" (14).

هناك مجموعة من النقاد - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - الذين لم يعجبوا بأسلوب ملتون، فهم يرون أن الإبهام والعمومية من خصائص أسلوبه يقول البرت كوك:

"نحن نحس بقوة شعرية في إبهام معروف لدى الناس وهو ما أشار إليه (ميكالى) والنقاد الجدد الذين يقدرّون الدقة والإحكام في التعبير ويعجبون بهما، ولا نجد ذلك عند ملتون، فالذى نجد عنده هي النغمات المترددة في الصوت والمعنى، وهو يفعل ذلك لأن هدفه ليس الدقة بل العمومية، فأنظر مثلاً في كلمات الإنسان (man) والثمرة (Fruit) والشجرة (Tree) في الأبيات الأولى للملحمة، فإنها استعملت استعمالاً عادياً وبالتالى تتسم بالعمومية ولا تعطى أى نوع من الرمز أو الإيحاء، وذلك لأن الرمز والإيحاء يتطلبان توظيف العناصر واستغلالها في نظام، ومحاولات ملتون الشعرية كلها بعيدة عن ذلك" (15).

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

وقد لاحظ بعض الدارسين أنَّ أسلوبه الشعري يرتفع ويصبح بارعاً إذا ابتعد ملتون عن شعوره باللغات القديمة أى الإغريقية واللاتينية (16).

لجوء ملتون إلى الشعر غير المقفى:

يتكون بيت الشعر في الفردوس المفقود عادةً من عشرة مقاطع وخمس نبرات في النغمة الصاعدة. وقد اختار ملتون الشعر غير المقفى في ملحمة لأنه كان يعتقد أنَّه هو القادر فقط على التعبير عن الأفكار العالية، وهو الذي يتسع فقط لبيان المواقف الضخمة والمشاعر القويّة.

يرى سانس برى أنَّ المقطع الشعري الإنجليزي التقليدي (Stanza) (والذي يتكون عادةً من أربعة أبيات) لم يكن يتّسع للموضوع الذي تناوله ملتون، ولذلك احتاج إلى إطار أوسع ليتخلّص من ضيق المقطع التقليدي وليتمتع بحريّة الفقرة الشعرية المتنوعة التي يوفّرها الشعر غير المقفى فقط وراح يقول:

"إن إدخال ملتون الفقرة الشعرية (Verse Paragraph) يعتبر مساهمة ذات قيمة في الفنّ الشعري الإنجليزي، وإنّه نجح في إعطاء سمة نغمة مسلسلّة لفقراته الشعرية" (17).

تحدّث النقاد كثيرًا عن ملامح الموسيقى الشعرية في الفردوس المفقود فقال بعضهم إن الجمال الموسيقي فيه قوى ومؤثر إلى درجة لا يقدر القارئ أو المتلقى على مقارنته خاصّةً إذا أنشدت الأبيات بطريقة سليمة.

وقد لوحظ التعبير الموسيقي فيه أيضاً حيث يلعب كل صوت ووقفّة أو سكتة بين الأصوات والكلمات دوراً في إكمال معنى الفقرة الشعرية ونقله إلى ذهن أولنقل بعبارة أخرى إن نغمة شعرة أيضاً تُعبّر عن العواطف والمشاعر.

ولكن إيليوت لا يوافق على هذه الملاحظات ويرى العكس أى أنَّ القارئ أو المتلقى يحس بانفصال التأثير في الفردوس المفقود الذي يجعل تشويق عناصره ممكناً، فلذا يجب أن نقرأه بطريقتين مختلفتين: أولاً للنغمة فقط وثانياً للمعنى فقط.

وقد أجابت هيلن دربي شأير، عنه قائلةً "إن الصوت والمعنى لا ينفصلان في الفردوس المفقود. لأنّ كل صوت ومقطع أو وقفّة بين الأصوات والمقاطع يؤدّي إلى معنى" ولم تكتف هذه الدارسة بهذه الملاحظة فقط، بل راحت تحلّل الفقرات الشعرية لتثبت أن المزج والتركيب بين الصوت والمعنى أعمق وأقوى بحيث يصعب فصل أحدهما عن الآخر (18).

2- السمو الأدبي في الفردوس المفقود:

أدرك النقاد منذ القرن الثامن عشر، هذا العنصر في شعره واعتبروه من خصائص الفردوس المفقود المميّزة، ولكنهم اختلفوا في تحديد مفهومه؛ فالدكتور جانسن (ناقد إنجليزي 1709م-1784م) يرى أن السمو الأدبي يكمن في قوّته المتخيّلة البارعة، فهو يقدر على توسعة خيال القارئ وعلى خلق الدهشة والتعجب في موقف السعادة والسرور.

ويرى أيديس أن السمو يتكوّن من علو أفكاره فهناك شعراء ينافسونه في خصائص أخرى للشعر ولكن لا أحد من القديم والحديث (مأعدا هوميروس) يُنافسه في عظمة العواطف وقوّة المشاعر التي تلهز القراء.

وقد وضح كولريج (1782م-1834م) رأيه بمثال قائلاً: إن شخصية الشيطان وعناصرها، كما صوّرها ملتون، مثل الجرأة والجسارة وعدم الاستسلام مع معاناته من المصائب والمشكلات وما شابه ذلك، فهذه هي الشخصية التي يتكوّن منها السمو الأدبي. ويرى جريريس أن وصف ملتون اهتمام الشيطان بأتباعه، واستعدادهم للمناقشة في الجحيم من أحسن نماذج السمو المتخيّلة (19).

الفكرة الأساسية للملحمة:

بعد تفكير عميق، استغرق سنوات طويلة، اختار ملتون هبوط الإنسان من النعيم بوصفه فكرته الأساسية لملحمته الشعرية، والتي يعلنها في افتتاحيتها بطريقة تُشعرنا أنه يريد أن يقول إنني سأتناول الموضوع البالغ الأهمية الذي لم يجرؤ عليه أحد الكتاب القدماء شعراً أو نثراً:

Things Unattempted yet in prose or rime

أي موضوعات وأشياء لماتعاج في النثر والشعر (20)

ويمكن أن يتلخّص ما قيل حول الفكرة الأساسية فيه فيما يلي:

- في بداية القرن الثامن عشر تحدّث أيديس عنها قائلاً: كما أن عبقريته تبدو في مظاهر السمو الأدبي كذلك موضوعه، فهو أنبل الموضوعات وأرفعها حيث يتضمن كل ما يدور في خلد الإنسان من أفكار وكلّ ما يدل على عظمة ويثير دهشة؛ فإننا نجد فيه عالم الفكر بكل أنظمتها، والعالم الهول، وخلق الأرض والنعيم والجحيم... وأهم من ذلك أن ملتون تناولها بشاعريته المتدفقة

- وفي القرن التاسع عشر أثنى كولريج على الفكرة الأساسية للفردوس المفقود واعتبرها أعلى منزلة وأكثر عالمية وأشمل أفقاً من فكرة هوميروس في ملحتيه الأوديسا والإلياذة. وقال إنهما بحكم موضوعهما ملحمتان إغريقيتان ولكن فكرة الفردوس المفقود تتجاوز حدود القومية وتدخل إطار العالمية، فهي تناقش أصل الشر والصراع بينه وبين الخير، وهي تضم في حضيها القضايا الإنسانية كلها مهما اختلفت نظريات الإنسان وفلسفته تجاه هذه القضايا.
 - وفي بداية القرن العشرين سلّم النقاد بعالمية الفكرة فيه أيضاً ولكن البعض منهم حاول تفسير هبوط الإنسان تفسيراً أعمق؛ فدراسة هبوط الإنسان بشيء من التعقيد تعطينا معانٍ كثيرة منها أن ملتون كان يعتقد أن الإنسان ثنائي التكوين امتزج فيه العقل والهوى، فهما قوتان فيه منسجمتان ومتوازنتان في معظم الأحوال، فالرغبات تظهر ولكن تحت سيطرة العقل. ولكن إذا تغلبت الشهوة على العقل بدا الشر وبدأت مأساة هبوط الإنسان. فتغلب الشهوة على العقل (ويستيه ملتون: إلحاح الشر) منبع الفساد؛ الفساد الأخلاق والفساد الجسدي والفساد السياسي:
- "فما كان آدم يُخدع إلا أنه لم يقدر على المقاومة أمام جمال الهرة الساحر".
- وهناك من يرى أن فكرة الفردوس المفقود الأساسية تفرّق لنا بين السعادة الصادقة النابعة من الحب والسعادة الكاذبة النابعة من الشهوة؛ فحياة آدم وحواء قبل الهبوط حياة نتخيّلها نحن فقط حيث كانا في سعادة لا نهاية لها، ولكن حين وجب الهبوط نراهما مثلنا يتخبّطان وراء سراب السعادة الكاذبة.
- ومن الأهداف التي قرّرها ملتون نفسه لكتابة الفردوس المفقود، تبرير ما يفعله الله مع الإنسان:

"And justify the ways of God to men" (21)

فالنقاد المحدثون أثاروا مناقشة حادة حول نجاح ملتون في هذا الهدف، ومعظمهم يرى أن ملتون الشاعر أخفق في هذا الهدف المزعوم؛ يقول جريريسن: "بل إنه يبرز أفعال الشيطان مع الإنسان بدلاً من أن يبرز ما يفعله الله مع الإنسان. وواضح أن هذا الرأي مبالغ فيه ولكن هذا هو الرأي الذي تبناه كثير من النقاد قائلين: إن فشله في هذا الهدف يكمن في عدم ارتفاعه إلى المستوى الشعري المطلوب، فهو في مثل هذه المواقف يتحوّل إلى واعظٍ معتمداً على الأدلة التي قلبها نقبلها من شاعر كبير.

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

- وقد لاحظ بعض النقاد أن محاولة ملتون لتبرير أفعال الله مع الإنسان أوقعتة في تناقض شديد فهو حين يبرّر هبوط آدم وحواء قائلاً إنها خالفاً بإرادتهما الحرّة أمر الله كأنا يستحقان عقاباً أشد من مجرّد الهبوط، ففي مستوى شعري عميق كان الهبوط ضرورياً ولازماً وذلك لأنّ الذنب وقع منهما بإرادتهما الحرّة والإنسان حرّ - مع قدرة الله الكلية وعلمه بالحوادث قبل ظهورها - في جهده وأعماله وإرادته، ولكننا إلى جانب ذلك نرى ملتون ظلّ يذكّر القارئ أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم أن آدم سيقع في المعصية ويعاقب على ذلك (22).

عناصر السيرة الذاتية:

يرى دارسو ملتون أنه حوّل الفن الملحمي الموضوعي إلى الذاتية، يقول ليجويس إنّه الوحيد الذي يحيا في الفردوس المفقود، فهو لم يكتف بإظهار آرائه ونظرياته فحسب بل أقحم نفسه بإدماج شخصيته مع بعض شخصيات الملحمة، ويبرز مشاعره وعلمه وآماله عن طريقها.

وقيل إن سبب كتابته الملحمة شخصي بحت، فهو لم يكن يبرّر أفعال الخالق مع الإنسان بقدر ما كان يحاول تبرير أفكاره تجاه الإنجليز ما بين الفترة 1640م - 1660م وكان يقول لهم عن أسباب فشلهم في إنشاء مجتمع صالح ففشلهم يكمن في عدم إخلاصهم وضعف إيمانهم وذنوبهم وشهوتهم، فهم أنفسهم مسئولون عن هذا التخلف.

والعناصر الذاتية جلية في صورة الأفكار السياسية أيضاً؛ ففي الجزء الأخير عندما يخبر ميكائيل آدم بأنه، نتيجة لهبوطه سيفقد حريته الحقيقية، كان ملتون يتهم حكومة أو ليفر كرومويل (Oliver Cromwell 1599م - 1658م) وكان من زعماء العساكر الإنجليزية، واستطاع أن يلغي الملكية، ويقيم النظام البرلماني لمدة قصيرة) نفسها فشلها في الثورة.

ويرى أحد النقاد أنّه لو لم يكن ملتون يعايش الحكومة البرلمانية الطويلة لما كانت المناقشة بين إبليس وأتباعه في الجحيم بهذه القوة والبراعة اللتين نجدهما في ملحمة.

والملاحظ كذلك أنّ أفكار ملتون وآراؤه عن المرأة والتي تتناثر في ثنايا الملحمة، مستمدة أيضاً من حياته الشخصية، فأظهر آدم رغبته عن المرأة، في أحد المواقف، ينمّ عما عاناة ملتون من الحياة الزوجية وخاصة بعد زواجه الأول، ثم يتغيّر سلوك آدم ورأيه تجاه المرأة، فيثنى عليها لئلا يفسد خلقها، وهذا التغيّر في الرأي موجود في حياة ملتون نفسه وخاصة بعد زواجه الثالث.

ويكاد يتفق جميع النقاد على أن شخصية ملتون تظهر بأقوى صورة في شخصية الشيطان فملتون الثائر المهزوم يجد هويته في شخصية الشيطان الثائر المتمرد ويدمج نفسه شعورياً فيها.

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

والمباشلة بينهما متعددة الجوانب مثل المباشلة في الأنانية وفي الغرور والفخر، والجرأة وعدم الاستسلام، لهذا نجد وصفه للشيطان وتعاطفه معه من أقوى مواقف الملحمة عمقاً وتأثيراً.

هناك كلام كثير حول مدى أثر ذاتية الملحمة في فنه الشعري، وهل أعطت هذه الذاتية حرارة العواطف والغناء الجميل؟ هذا بالإضافة إلى الملاحظة المهمة أن قيمة حرارة العواطف والغناء الجميل تعتبر محدودة في فن الملاحم.

وعلى أية حال فإن هذه الذاتية عند بعض النقاد، أحدثت تعارضاً بين هدفه المزعوم وأدائه الشعري الحقيقي (وقد سبقت الإشارة إلى ذلك تحت عنوان الفكرة الأساسية) يقول أحد النقاد إن ملتون باعتبار مؤمناً مخلصاً، صمم على أن يبذر أفعال الله مع الإنسان ولكنه لم يحقق ذلك في صورة الحب العاطفي المدفوع لأتفه فعل ذلك على أساس الخطب والمواعظ الطويلة التي تحتل أوراقاً كثيرة من الملحمة والتي تبدو في معظم الحالات غير مؤثرة في النفوس وتكون، أحياناً، مصطنعة ويتحول ملتون هنا إلى تلميذ لعلماء الإلهيات، فالأدلة الأكاديمية الباردة والخالية من العواطف لإثبات نظرياته الميتافيزيقية لا تؤثر في قلوبنا وفي خيالنا، ويصعب علينا أن نرحب بها من شاعر مثل ملتون (23).

صورة الشيطان في الفردوس المفقود:

يرى النقاد أن الشيطان أقوى شخصيات الفردوس المفقود وفي رأي الكثير، هذه هي الشخصية التي تسيطر على أذهاننا، أثناء قراءة تال للملحمة، فهي أعظم من شخصيتي أخيل وهكتور.

والملاحظ هنا أن تصوير ملتون للشيطان وتعاطفه معه محل خلاف بين النقاد؛ ففي العصر الرومانسي أعجب النقاد به إعجاباً شديداً، وكلما تظهر شخصية الشيطان في الملحمة نجدها تهز خيالنا فهي شخصية ضخمة غير عادية، ومرهقة غير مستريحة وجريئة متمردة ونلاحظ أيضاً أن ملتون عندما يتحدث عن الخالق والملائكة يتحدث عنهم بكل حذر وموضوعية ولكن عندما يصور الشيطان يصوره بكل حريته وتدفق فني. يقول أحد نقاد العصر الرومانسي: إن عظمة الفردوس المفقود وسر حياته الأدبية يكمنان في عنصر واحد وهو الشيطان، كما أن خلود الإلياذة والأوديسا يرجع إلى شخصيتهما؛ أكليس وأوديس.

وقد اختلفت رؤية النقاد في القرن العشرين عن صورة الشيطان في الملحمة. فالشيطان في رأيهم - كما صورة ملتون - يظهر لنرى انحطاطه التدريجي. والشاعر لا يتعاطف معه ولا يحاول أن يربط نفسه به بل يقدم لنا شخصية في طريق زوالها وانحطاطها التدريجي، فمن بطل إن جنرال ومن

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية النقدية المعاصرة

جنرال إلى رجل سياسى ومن رجل سياسى إلى رجل المخابرات ثم يتحوّل إلى شيء يوضع في غرفة النوم أو في نوافذ الحمام ثم يتحوّل إلى ضفدع فالحية... فهذه هي قصة الشيطان. وعلى أية حال فإن النقد في هذا القرن، مع ملاحظتهم أن الشيطان يمثل الشر فقط، يسلمون بأن شخصيته صوّرت في أقوى أسلوب وأشدّ براعة، الأمر الذي يجعلنا نقول إن البراعة الفنية التي ظهرت في تصوير هذه الشخصية لم تظهر في تصوير أى شخصية أخرى في الملحمة.

وكون الشيطان يمثل الشر وكونه يبقى للذنوب لا يمنعنا أن نُقرّ بأن شخصيته في الملحمة لا تخلو مطلقاً من محاسن أخلاقية؛ فهو زعيم الملائكة المغضوبين عليهم، ويظلّ مستعداً ليؤثر على نفسه الخير الاجتماعى ويترك منفعته الذاتية في سبيل ذلك وهو شفوق، وقلبه ملىء بالحب والعاطفة حيث أنه عندما قام ليخطب أتباعه لم يقدر على أن يمسك دموعه، ثم أثناء تبادلهم الرأى في الشخص الذى سيقوم بمهمة البحث عن هذا المخلوق الجديد (آدم وحواء) تطوّع القائد الشيطان بنفسه لتحمل هذه المسؤولية، فسيد القوم خادمهم، فكل هذه العناصر تدلّ على عظمة الشيطان الأخلاقية (24).

العنصر البشرى:

من ملاحظات النقد الطريفة حول الفردوس المفقود عموماً وحول ملتون على وجه الخصوص مايلي:

"لو كان ملتون مكان آدم لكان أكل الشجرة الممنوعة ثم كتب كتباً ليثبت جواز عمله هذا وصحته!"

والجدير بالذكر أن وجود العنصر البشرى أو عدمه موضع خلاف، مثل العناصر الأخرى بين النقد؛ ففي القرن الثامن عشر أُعتبرت العواطف والعناصر البشرية من روعة الفردوس المفقود وجماله الناقد. ومن نماذجه ما يوجد من مظاهر حياة آدم وحواء المنزلية مثل:

"نام آباؤنا متوسدين أذرع بعضهم بعضاً"

ومن نماذجه أيضاً حوارات الحب والعشق التي كانت تدور بينهما والتي كانت تنسيبها عما كان حولها.

يقول الدكتور جانسن: إن دور الرجل والمرأة في الفردوس المفقود محدود وضيق جداً ولا يتسم بالبشرية التي تعودنا عليها بحيث لا يتسع للقارئ أن يجد مكاناً له ليضع نفسه فيه ولو تكلف بقلته المتخيلة، فلهذا لا يجد في نفسه رغبة الاستطلاع عنهما أو التعاطف بهما.

وقد أجاب بعض النقاد عن هذا الاعتراض قائلاً بأن ملتون لم يشغل نفسه بهذه القضية لأنه وضع هدفه لكتابة الملحمة أمام المتلقي منذ البداية وهو أن يحدثنا عن هبوط الإنسان من النعيم وأسبابه، فينبغي أن لا يطالب منه العمق في تصوير شخصيتي آدم وحوّاء وإبراز بشريتهما، فالرجل والمرأة في الفردوس المفقود هما الرجل والمرأة اللذان لا نعرفهما في حياتنا اليومية، ولو تناولهما ملتون بناءً على البشرية العادية لما اختار آدم وحوّاء بل اختار الرجل والمرأة العاديين.

هذا، وهناك عدد من مناظر مليئة بالحبّ والعاطفة بين آدم وحوّاء والتي صوّرها الشاعر تصويراً بارعاً معتمداً في ذلك على علمه بالأساطير الإغريقية وبالشعر اليوناني واللاتيني، التصوير الذي يكشف عن فطرية آدم وحوّاء وبشريتهما ولا سيّما في شخصية حواء، فهي، وإن كانت تعيش في النعيم، تتسم بخصائص امرأة العالم الدنيوي أكثر من آدم؛ فمجادلتها مع آدم في اليوم الذي أكلت الشجرة فيه، وغيرها عليه واتهامها آدم بأنه هو المسئول عن كل ذلك لأنه لم يمنعها عن الذهاب بالقوة والحسم بحيث يقول: Command me absolutely not to go

أي كنت تأمرني بعدم ذهابي أمراً باتاً

فكل هذا دالٌّ على حيوية شخصيتها وقربها من البشرية.

ولكن شخصية آدم تبدو في صورة تشبه التحجر والجمود، وتتكوّن من عناصر الشخصية البيوروتانية المثالية عند ملتون (25).

بطل الفردوس المفقود:

ثمة آراء متناقضة، كالاعتقاد، حول هذه القضية؛ وقد جعل إعجاب الرومانسيين بشخصية الشيطان القوية من الناحية الفنية، فقد جعلهم يعتبرونه بطلاً للملحمة، وذلك لأن ملتون عندما يصوّر الجحيم أو المتمردين أو الشيطان، يصوّرهم بكل حرّية فنية، ولكن عندما يأتي إلى الحديث عن الخالق والبلائكة يمسه ويصبح محتاطاً جداً، فما السبب في ذلك؟

يجيب عنه أحد النقاد الرومانسيين وهو بليك (وليام بليك: 1757م-1827م شاعر ورسام إنجليزي) قائلاً: "لأن ملتون كان شاعراً صادقاً وكان من جماعة إبليس وإن لم يعلم ذلك"

الفردوس المفقود لملتون في الرؤية التقديرية المعاصرة

وهناك من يرى أن ملتون نفسه هو بطل الملحمة بدليل إدخاله العناصر والنظريات الشخصية المتمثلة في شخصيات الملحمة وأبرزها الشيطان (26).

وقيل إن المسيح هو بطل الملحمة ولكن النقاد لم يعتدوا بهذا الرأي.

ويرى معظم نقاد القرن العشرين أن آدم هو بطل الملحمة فهو، وإن لم يدخل المغامرات والمخاطر حتى يُبرز بطولته فيها، فهو وحّاً هما اللذان في النهاية يقابلان المستقبل المجهول والمملوء بالمحن والمشقات ويعانيان من العواقب التي لا نهاية لها في الحياة الدنيوية. وصحيح أن شخصية الشيطان أكثر حيوية وفعالية وخاصة في الجزئين الأول والثاني وحتى في الثالث، وصحيح كذلك أن شخصية حواء تضم العناصر البشرية أكثر من آدم، وصحيح أيضاً أن بطولة آدم لا تساوي بطولة أكليس وأوديس وغيرهما، ولكن في النهاية هذه هي الشخصية التي تستحق أن تكون بطلاً للملحمة ولا سيما لا مفرّ للملحمة من بطل (27).

هذا، ومن الجدير بالذكر أن مغامرات الشيطان وألاعيه ومعاركه ورغبته في العصيان والتمرد، يحتل كل ذلك ثلث الملحمة أي من بداية الكتاب الأول إلى منتصف الكتاب الرابع بالإضافة إلى ظهوره في ثلثي بقية الكتب الأخرى.

مزج العناصر الإغريقية والعناصر العبرانية:

لا شك أن فكرة الفردوس المفقود عبرانية الأصل استمدّها الشاعر من الكتاب المقدس ولهذا ينصح كثير النقاد قراءة الكتاب المقدس لفهم أفكار الفردوس المفقود العميقة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل نجح ملتون في استغلال هذه الفكرة استغلالاً فنياً؟ (28)

يجيب النقاد على هذا السؤال المطروح قائلين: إنه فعلاً أعطى نصوص الكتاب المقدس الحرارة العاطفية وقوة الخيال في كثير من الأحيان.

ولكنه من الملحوظ أيضاً تأثير العناصر الإغريقية في أسلوبه وفي مكونات ملحته وخصائصها، ويلاحظ أيضاً أنه تصرّف بعبقريته في مزج هذه العناصر بطريقة جعلت كثيراً من النقاد يطلقون عليها العناصر، الملتونية، ويرى النقاد أن الآثار الإغريقية في ملتون أكثر روعة وجمالاً في الناحية الشعرية من الآثار العبرانية (29).

التشبهات في الفردوس المفقود:

تُعتبر براعة ملتون في تشبيهاته من العناصر المهيّنة التي تكوّن فنه الشعري الخالد. وقد لجأ ملتون إلى التشبيهات الثنائية بعضاً قصير وبعضها الآخر ضخم وطويل ويعرف بالتشبيهات الهوميورية (هو التشبيه الذي يظهر المشبه به أقوى من المشبه)، فحين نراه يصف الشيطان نجده يشبّهه أولاً بالتيتانات الخرافية ثم يشبّهه باللوياثان (Leviathan وهو وحش بحري ضخم رهيب يرمز إلى الشرّ، وقد ورد ذكره في الكتاب المقدس) ولم يقتصر ملتون في تشبيهاته على الموازنات المشهورة بل وسّع في نطاقها وعمّق جوانبها فهو حين يشبّهه مجن الشيطان بدائرة القمر يحيط الخيال بالدهشة والغرابة.

ومن مميزات تشبيهاته أنها تقرب إلى القارئ عناصر العالم البعيد عن تجربة الإنسان وتعزّف للإنسان هذا العالم الذي ابتكرته قدرة الشاعر الإبداعية (30).

وعلى أية حال فإن التشبيهات الجيدة تكثّر في الجزئين الأوّل والثاني، وبقية الأجزاء تكاد تخلو منها الأمر الذي جعل النقاد يعكفون على دراستها فقط في معظم الأحوال وذلك لقيمتها الفنية وبراعتها الأدبية.

المراجع والهوامش

- (1) انظر للتفصيل : The Cambridge companion to Milton Ed. Dennis Danielson, second edition
Cambridge University Press 1999, PP xiv-xvi, 1-25.
- (2) كانت هذه الملحمة في البداية تتكون من عشرة كتب ثم أعيد النظر فيها في عام 1674م وأصبحت لها اثني عشر كتاباً حسب طريقة إنيادة ورجيل الشاعر الروماني (70-19 قبل الميلاد) وتتفاوت هذه الكتب الاثني عشر في طولها، فأطولها الكتاب التاسع والذي يتكون من 1189 سطراً وأقصرها الكتاب السابع وهو المكون من 640 سطراً.
- (3) انظر للتفصيل : Jhon Milton's Paradise Lost , Book-1
A Critical study with text.Dr. S. sen, Ms. Kalpana Rajaram and Ramj Lal- Kitab Mahal
Lahore.
بدون تاريخ الطبع ص: 13-10 (وسوف أشير إلى هذا المرجع بذكر عنوان الكتاب وبالإشارة إلى رقم الكتاب والصفحة)
- (4) المرجع السابق الكتاب الثاني ص: 23.
- (5) أول من استخدم هذا المصطلح هو ميسو آرلند (Mathew Arnald: 1888م - 1822) وهو شاعر ونقاد وكاتب إنجليزي، وقد اشتهر بكتاباتاته حول قضايا المجتمع التي عايشها. ومن أعماله النقدية المشهورة: Essays in criticism أى المقالات في النقد و The study of poetry أى دراسة الشعر. انظر للتفصيل: Mathew Arnald Ed. Miriam Allott & Robert H.Super, Oxford University press 1986.
- (6) Paradise Lost الكتاب الثاني ص: 34.
- (7) F.R. Levis من تأليف Michael Bell Rutledge U.S.A 1988, P. 58-59.
- (8) Paradise Lost الكتاب الأول ص: 26.
- (9) Surprised by Sin: the reader in Paradise lost وقد ألفه : Stonley Fish Harverd university press, 1998 PP-142.
- (10) Paradise Lost الكتاب الثاني ص: 30.
- (11) Virgil (ورجيل) شاعر روماني عاش بين 15-70 قبل الميلاد وله أعمال شعرية عديدة ولكنه اشتهر بمملحته المسماة: Aneid أى الإنياذة التي ألّفها خلال عشر سنوات الأخيرة من حياته وهي قصة الأمير الإنياش ومغامراته المتعددة. وأما Dante (دانتي 1265م-1321م) فهو شاعر إيطالي وقد ألّف الملحمة الشعرية المعروفة بDivine Comedy أى الكوميديا الإلهية.
- (12) راجع المرجع السابق ص: 35.
- (13) Homer (هوميروس) شاعر إغريقي مؤلف المملحتين: الإنياذة والأديسا ويعتبر أعظم الشعراء القدماء لدى الحضارة الغربية. وأما Shakespeare (شيكسبير 1564م-1616م) فهو أكبر شاعر وكاتب مسرحي في تاريخ الأدب الإنجليزي ورغم مضي أكثر من ثلاثة قرون مازال يحظى بالاهتمام والدراسة والاحتفال ليس لدى أبناء اللغة الإنجليزية فحسب بل لدى أبناء اللغات الأوروبية الأخرى كذلك.

الفرحوس المفقود لبلتون في الرؤية النقدية المعاصرة

- (14) انظر المقال : Milton & Shakespear : Battle of the Bards الذي ألفه Gary Taylor والمنشور في : Time Magazine، مايو 15، 2008 م ص: 20-21
- (15) paradise Lost الكتاب الثاني ص : 43. وأما البرت كوك (1853م- 1927م) فهو دارس اللغة والأدب الإنجليزيين القدمين الأمريكي - وميكاى (1469م- 1527م) كاتب ومفكر إيطالي مشهور، عاش خلال الفترة النهضة الأوروبية الحديثة ويعتبر مؤسس العلوم السياسية الحديثة.
- (16) المرجع السابق
- (17) المرجع السابق الكتاب الأول ص: 32.
- (18) المرجع السابق ص: 110
- (19) انظر لهذه المناقشة: المرجع السابق ص: 30-34.
- (20) Paradise Lost الكتاب الأول ص: 80.
- (21) المرجع السابق ص: 54.
- (22) انظر للتفصيل ص: 59-59 من المرجع السابق.
- (23) انظر لهذه المناقشة : The Cambridge companion to Milton المذكور إعلاه ص: 132، 134، 145، 135
- (24) Paradise Lost الكتاب الثاني ص: 64-69 وكذلك المرجع السابق ص: 162 وما بعدها.
- (25) Paradise lost الكتاب التاسع ص: 55-59.
- (26) وقدم هذه النظرية التي استغرب منها النقاد والآخرين، دينس سورات (Denis Saurat 1980م- 1958م) وهو ناقد وكاتب إنجلو- فرنسي، وقد ألف كتاباً بعنوان: Milton: Man & thinker وناقش فيه نظريته هذه بالتفصيل انظر الكتاب في الموقع التالي:
openlibrary.org/books/ol5911483M/Milton_man_and_thinker
- (27) راجع لهذه الآراء والمناقشة المفصلة لها: Paradise Lost الكتاب الأول ص: 72-78.
- (28) The Cambridge Companion to Milton المذكور إعلاه ص: 144-159.
- (29) Paradise Lost الكتاب الأول ص ص: 200-203
- (30) المرجع السابق ص: 110-112